الدكتور عدنان الأمين
رئيس
الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية

إدماج تلامذة المدرسة بنظام الجامعة التعليمي والثقافي

1. لا أدرى إن كان الانتقال من المدرسة إلى الجامعة يجب أن يكون سلسا. هل يعني هذا أن الطالب يجب أن لا يشعر بأنه انتقل من المدرسة إلى الجامعة مثلا؟ إن افتراضا من هذا النوع يعني أن الذي ينتقل لأول مرة من الريف إلى المدينة يجب أن لا يشعر أيضا بالتغير. ولا الذي ينتقل من بيروت إلى باريس. إذا صحت المقارنة تكون مقاربة السلاسة مبنية على وهم. هذا أول احتمال.

الاحتمال الثاني ان تكون سلاسة الانتقال قائمة فعلا. وتلك مشكلة. ثمة جامعات تشبه فعلا المدارس الثانوية، بل المدارس الثانوية الليلية. صفوف وأروقة ومقررات وجدول دروس أسبوعي لكل صف وناظر وكتب مقررة وامتحانات شبه رسمية فيها ومراقبون ومسابقات مقفلة، الخ. والطلاب يخرجون من باب بيتهم ليدخلوا باب الصف ثم يعودون في الاتجاه المعاكس، دون أي فسحة لما يسمى حياة جامعية. بئس مثل هذه الجامعات.

وثمة جامعات تستقبل طلابا مع كامل محيطهم الاجتماعي الذي تربوا فيه خلال التعليم ما قبل الجامعي، وما زالوا فيه اليوم، من أساتذة وموظفين، وشعارات وطقوس واحتفالات وصور الأبطال أنفسهم، الجو هو هو. بئس مثل هذه الجامعات.

إذا لم يكن ما أقوله واضحا كفاية اقرأوا معي هذا الخبر الذي نشر في الصحف. سأغفل التاريخ واغفل اسم الجامعة، لان مثل هذا الخبر يتكرر كثيرا في الصحف في آخر عشرين سنة مع تبدل في أسماء الجامعات والأشخاص. ولن أقدم أمثلة من مناطق أخرى من اجل تأمين التوازن الطائفي، أو ما يسمى اليوم بالميثاقية. اخترت هذه الخبر تحديدا لأنه فقط كامل الأوصاف.

"رعى رئيس الجامعة (...) الافتتاح الرسمي لشعبة كلية العلوم، في حضور النواب ورجال الدين وعميد كلية الأعمال في الجامعة (...) وعميد كلية الزراعة (...) وعميد كلية العلوم (...) وجمع من الطلاب." وألقى هؤلاء خطبا في المناسبة. وانتهى الخبر كما يأتي:" ثم كانت جولة في الشعبة التي تحتل مؤقتاً الطبقة الثالثة لمبنى تكميلية ... الرسمية".

ان أسلس انتقال يمكن ان يتخيله المرء هو هذا الانتقال من الطبقة الثانية في المرحلة الثانوية إلى الطبقة الثالثة في الجامعة. أو من خلال تعريف الجامعة بأنها مؤسسة للتعليم الجامعي مخصصة لأبناء القرية أو لأبناء الحي أو لأبناء الجماعة، أكانت شعبة أو فرعا أو مؤسسة كاملة، حكومية أو خاصة.

إذا لم تحدث الجامعة صدمة، ايجابية، فيجب ان لا تسمى بالجامعة. وبما أن كل ما هو فوق الثانوي اسمه عادة جامعة او معهد جامعي فان المؤسسة التي تريد ان تكون جامعة عليها ان تفخر بانها تتميز بانها تختلف عما سبقها وبانها تؤمن هذه الدهشة او الصدمة.

تحدث الصدمة عندما تكون الجامعة مختلفة عن المرحلة الثانوية في السياق المكاني وفي الحكامة او الحوكمة وفي هيكلة الدروس وفي ملامح الجسم الطلابي وفي ملامح الجسم التعليمي وفي طبيعة العلاقة بين الطرفين وبينهما وبين الإدارة وفي فرص النشاط وعيش حياة جامعية كاملة تسودها الحرية الأكاديمية. الجامعة ليست دروسا أعلى فقط بل هي نمط معين من الحياة الأكاديمية والاجتماعية.

وبما ان الصدمة حاصلة لا محالة في الجامعة التي تكون جامعة فهي قد تكون إيجابية او سلبية، قد تكون حافزاً للإبداع وقد تكون سبباً للانطواء او للانخراط في أمور هي تعبير عن الرفض والامتعاض والغضب. وهذا ما يحصل أيضا للمنتقلين من الريف الى المدينة او من الجزائر الى باريس. الاحتمالان قائمان. لذلك فان السؤال الذي يطرح نفسه مع هذا الانتقال يتعلق بالاندماج في المجتمع الجديد. وهذا ما أود ان أتوقف عنده في هذه المداخلة. الاندماج في الحياة الجامعية، ترجيحا لما هو إيجابي في الصدمة.

طبعا يمكن القول ان الاندماج قد يحصل عن طريق الأقران، لكن عدم الاندماج قد يحصل أيضا عن طريق الأقران. من هنا أهمية التفكير في موضوع الاندماج على مستوى المؤسسة ككل.

2. الهياكل والأنشطة

كذلك يجب التمييز بين الهياكل والأنشطة التي تؤمنها الجامعة لأسباب تتعلق بطبيعة الجامعة والتي توفر فرص الاندماج، وبين الهياكل والأنشطة التي تقام من اجل الادماج. هو تمييز بين الجامعة التي هي منظمة تقوم على الحرية الأكاديمية، وبين الخدمة الادماجية. هذا التمييز

ضروري حتى لا تختلط البنية الطبيعية للجامعة في ادراكنا مع الخدمة الادماجية. أي ان إنشاء وحدة للإرشاد والتوجيه في الجامعة هو خدمة وهو ليس من نفس طبيعة وجود نواد في الجامعة او مجلة او هيئات طلابية تمثيلية، التي هي جزء لا يتجزأ من المؤسسة الجامعية.

سأتوقف عند ثلاثة أصعدة تظهر فيها الجامعة بالمعنى الهيكلي للكلمة: على الصعيد الأكاديمي، على الصعيد الثقافي، وعلى صعيد الحكامة، قبل ان انتقل الى موضوع الخدمات. وسآخذ أمثلة من أربع جامعات في لبنان هي: اللبنانية، اليسوعية، الأميركية، وسيدة اللويزة.

أ- على الصعيد الأكاديمي

نبدأ بما توفره الجامعة من مرونة في البرامج والتسجيل فيها.

في الجامعة الأميركية في بيروت هناك فرص للتسجيل في اختصاص غير متخصص (Major-less status) في كلية الآداب والفنون، او من دون نية الحصول على شهادة، وهناك طلاب مستمعون، وإمكانية للحصول على شهادة باختصاصين (Double major/concentration) أو على شهادتين في الوقت نفسه (Dual degree) أو على شهادة ذات اختصاص رئيسي واختصاص ثانوي (Major and Minor)، وفرص للانتقال من الجامعة واليها. صيغ دراسية بهذا التنوع لا توجد في الجامعات ذات النموذج الفرنسي اذكر من بينها الجامعة اللبنانية واليسوعية.

وفي ترتيب المقررات ثمة في النموذج الأميركي ما يسمى بالمقررات العامة او متطلبات الجامعة، وهي مروحة قد تكون واسعة من المقررات يختار منها الطالب على طريقة (self service) على ان يجمع حداً أدنى هو شرط للتخرج. هذه المجموعة تضاف الى ما يسمى متطلبات الكلية ومتطلبات الاختصاص والتي تشكل معا مجموع الأرصدة اللازمة للتخرج. هذه الفرص متاحة أيضا في سيدة اللويزة وان بمقدار اقل من الجامعة الأميركية.

في الجامعة اللبنانية قد توجد بعض المقررات الاختيارية لكنها تطرح على مستوى الفرع ما يحد من عددها ومن تنوعها الامر الذي يجعلها أقرب الى الإلزامية. وفي اليسوعية أيضا تضاف مقررات الى المنهج على مستوى الكلية والقسم ويجري الاختيار من بينها. المقررات الاختيارية ليست هنا مقررات يختارها الطالب من كليات أخرى بل مقررات تختارها الكلية له وتضيفها الى منهاجها وتطلب من الطالب ان يختارها أو يختار منها.

كان يفترض بنظام ال ام دي (LMD) ان يفتح الباب امام الطلاب لكي يتصلوا بكليات أخرى، ويختاروا مقررا في علم النفس مثلا يعلم في قسم علم النفس وليس مضافا الى قسم ادارة الاعمال الذي يدرسون فيه، ما يعطي مروحة واسعة من الخيارات. لكن تطبيقات النظام المذكور سارت في قنوات النظام اللبناني، الذي كان فرنسيا. وفي النظام الفرنسي التقليدي ثمة

انفصال بين الاختصاصات والكليات منذ السنة الأولى حتى التخرج، اللهم إذا كان في احدى الكليات ما يسمى بالسنة التحضيرية.

وما فاقم الأمر في لبنان توزع الجامعات بين أبنية وعناوين متفرقة. والحرم الجامعي ليس مسالة هندسية او اقتصادية، انه هذا الذي نتحدث عنه في تنوع فرص التعليم أمام الطلاب، وفي أمور كثيرة أخرى أبرزها قضاء اليوم الجامعي كله في الحرم وحتى السكن فيه. الحرم أصلا مبني على فلسفة الاختلاط والاندماج.

من هذه الزاوية، زاوية الاندماج الاجتماعي يعتبر التعليم العالي في لبنان فاشلا، او هكذا صار بعد الحرب الأهلية. من أصل ما لا يقل عن مائتي ألف طالب جامعي في لبنان يمكن التقدير ان 25 الفا منهم على الأكثر يقيمون في مجمعات او احرام مختلطة بدرجة معقولة. اما الجامعات الباقية فهي اما مفرعة ولكل فرع جمهوره او هي أصلا جامعة جماعة او جامعة محلية.

ب- على الصعيد الثقافي

الجفاف الثقافي في الجامعة هو عائق امام اندماج الطلاب او أمام تحولهم أصلا الى طلاب جامعيين بالمعنى الواسع للكلمة.

يجب ان نسأل الجامعة أولا هل توجد فيها مجلة مثلا يصدرها الطلاب دوريا وبمسؤوليتهم الكاملة، ولو ان طباعتها ممولة من الجامعة؟ وهل المجلة التي تصدر عن الطلاب تحمل او لا تحمل في كل عدد صور الرئيس والعمداء او خطبهم العصماء؟

يجب ان نسأل ثانيا ما إذا كانت هناك نواد، وما إذا كانت هذه النوادي متنوعة لدرجة يجد فيها معظم الطلاب مجالا لنشاطاتهم؟

يجب ان نسأل ثالثا ما إذا كان الطلاب يمارسون أنشطة في الجامعة، ما عدد هذه الأنشطة في السنة؟ وما مواضيع هذه الأنشطة؟ هل هي صدى للأنشطة السياسية والاجتماعية في المجتمع المحيط، ام هي أنشطة فكرية او متعلقة بالشأن العام او بالمعارف العديدة التي تضمها الجامعة بين جناحيها بحيث تستحق ان تشع هي على المجتمع المحيط؟

لم نلحظ وجود مجلة يصدرها الطلاب بمسؤوليتهم الا في الجامعة الأميركية في بيروت، وثمة في هذه الجامعة 59 نادٍ و26 جمعية للطلاب. وتقول معلوماتنا غير الدقيقة ان هناك بالمقابل 12 نادياً في الجامعة اليسوعية، و21 نادياً في جامعة سيدة اللويزة، ولم يتبين لنا وجود أي ناد في الجامعة اللبنانية، على الأقل استنادا الى موقعها الالكتروني.

أمّا الأنشطة فليست لدينا قدرة الآن على رصدها وتصنيفها في الجامعات الأربع، فذلك يحتاج الى متابعة عبر فترة من الزمن. لكننا نلحظ من أخبار الصحف كثرة الأنشطة التي تتم في فروع الجامعة اللبنانية تحت راية المناسبات الدينية والسياسية والمحلية. وقد يحصل في الجامعات الأخرى مثلها، لكن ليس لدينا أدلّة كافية من أجل ادعاء شيء واضح حول هذه النقطة. ولعل موضوع الحكامة الذي سوف نتوقف عنده يشي بغلبة ما.

ج- على صعيد الحكامة

على المستوى الإداري، هناك عمادة للطلبة في الجامعة الأميركية ومكتب لشؤون الطلبة في سيدة اللويزة. وهذا امر مفتقد في الجامعتين اللبنانية واليسوعية. في هذه الأخيرة يوجد ما يسمى "دائرة الحياة الطلابية".

أما على مستوى الهيئات التمثيلية فهي توجد في الجامعات الأربع، ولكن.

فقط في الجامعة الأميركية ما زالت انتخابات المجلس التمثيلي للطلاب (SRC) تتم بصور منتظمة سنويا، حيث يلعب المجلس دور الوسيط بين الطلاب والإدارة ويشرف على مجموعة من النوادي والأنشطة الطلابية بما في ذلك إصدار مجلة (Outlook).

في الجامعات الثلاث الأخرى أوقفت النزاعات السياسية الانتخابات منذ سنتين على الأقل. في جامعة سيدة اللويزة ثمّة بحث الآن في نظام جديد لاتحاد الطلبة (students union)، لكن صياغته قيد شد الحبال بين الاتجاهين السياسيين المتصارعين هناك، في الأساس ليس لهذا الاتحاد دور في اتخاذ القرارات في الجامعة، حالها كحال الأميركية.

وفي اليسوعية توقف العمل بالنظام النسبي الذي اختارته الجامعة واستبدلت الانتخابات ببرنامج توعية على المواطنة، وبادر رئيس الجمعة الى انشاء مجلس استشاري وبرلمان كبدائل عن الانتخابات، لكن هناك في الوقت نفسه تحضيرات لإجراء انتخابات قريبا.

وفي الجامعة اللبنانية شرّع التمثيل على أساس الفروع منذ العام 2009. وأصبح كل فرع منطقة نفوذ لجهة سياسية. ورغم أن انتخاب المجالس الطلابية توقف رسمياً، فإن هذه المجالس ما زالت قائمة، عن طريقة التوريث: كل عضو مجلس فرع يتخرج يأخذ مكانه طالب من الحزب نفسه.

خلاصة الأمر، أن فرص التمثيل في جامعتين من أربع تعصف بها النزاعات السياسية أي أنها لا توفر للطلبة فرص الدخول في حياة جامعية مدنية، بل استمراراً لحياة سياسية سابقة او امتداداً للمحيط. وبخلاف سائر الجامعات تتمتع الهيئات الطلابية المتوارثة في الجامعة

اللبنانية بسلطات إدارية تصل أحياناً إلى حد التأثير على القرارات الأكاديمية في الفرع، بما ذلك التعاقد مع أستاذ أو إنجاح طالب عنوة.

هل نتابع بعد كل هذه البانوراما عن الجامعة كمؤسسة ما يتوافر فيها من خدمات ادماج؟ نتابع فقط من اجل ان نسأل ماذا تفعل هذه الخدمات في ظل قوة الاندماج السياسي مع المحيط؟

3. خدمات الادماج

ثمة مكتب لشؤون الطلاب (Office of Student Affairs) في الجامعة الأميركية في بيروت، ومكتب للتوجيه (Bureau de L'Orientation) في اليسوعية، وخدمات ارشاد أكاديمي (Academic Advisory services) في سيدة اللويزة. وفي الأميركية يوجد مركز للإرشاد النفسي (Counseling Center)، وفي الجامعة اللبنانية يوجد مكتب الخدمات الاجتماعية والشؤون الطلابية. وجميع هذه الجامعات تقوم بحملات دعائية في الثانويات من اجل استقطاب طلاب جدد.

ليس لدينا معلومات عن عمل ونشاط كل من هذه الأجهزة. لكننا نفترض أن الجهاز الذي لا يسمح له الجسم العام بممارسة وظيفته يذبل ويصير شكلا فقط.

4. فضاء الاندماج

ثمة جامعات واسعة وجامعات ضيقة. والفرق في الاتساع ليس في المساحة أو عدد الطلاب، بل في الفضاء. وقد تكون جامعة من عشرة آلاف طالب أوسع من جامعة تضم مائة ألف طالب. الفضاء الواسع هو هذه الهياكل والفرص والأنشطة والوحدات والمرونة المتاحة امام الطالب. الفضاء يكون واسعا أمام الطالب الفرد. والفضاء الضيق هو الممرات الضيقة والمسيجة والمتوازية أكانت أكاديمية أم اجتماعية أم سياسية أم ثقافية، التي يوضع فيها الطلبة فيسيرون في كتل. إن الاندماج في الجامعة يتصل بالجامعة الواسعة. فما معنى الاندماج من دون ركنيه الفرص والتمكين؟

لن أدخل اليوم في كيف يكون الاتساع شكلياً أحياناً، أقرب إلى الرسم منه إلى الحقيقية. لكن هل فكر أحد لماذا تنشب النزاعات بين الطلاب وتتحول إلى معارك في ثلاث جامعات، مع أن الأحزاب والطوائف نفسها موجودة في جميع الجامعات؟ أظن أنّه بسبب ضيق الفضاء. الضيق يسبب التوتر والغضب.

وإذا كان التعليم الابتدائي يحول الطفل الحر إلى تلميذ، من أجل التنشئة والاستمرار، فإن الجامعة الواسعة تطلق حرية الطالب في التفكير والاجتماع والانتماء والاندماج، من أجل التغيير.